العنوان:	طوق الحمامة لابن حزم
المصدر:	المجلة
الناشر:	الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
المؤلف الرئيسي:	الشاروني، يوسف
المجلد/العدد:	س 9, ع 102
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1965
الشهر:	يوليو
الصفحات:	76 - 85
رقم MD:	399508
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الشهوة، نقد الكتب، كتاب طوق الحمامة ، ابن حزم الأندلسي ، علي ، 456هـ، التراجم، الحب، الظواهر الاجتماعية، المحبون، النقد الأدبي، الأدب العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/399508

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA
الشاروني، يوسف. (1965). طوق الحمامة لابن حزم.المجلة، س 9, ع 102، 76 - 85. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/399508
إسلوب MLA
الشاروني، يوسف. "طوق الحمامة لابن حزم."المجلةس 9, ع 102 (1965): 76 - 85. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/399508

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

كتاب الشهر

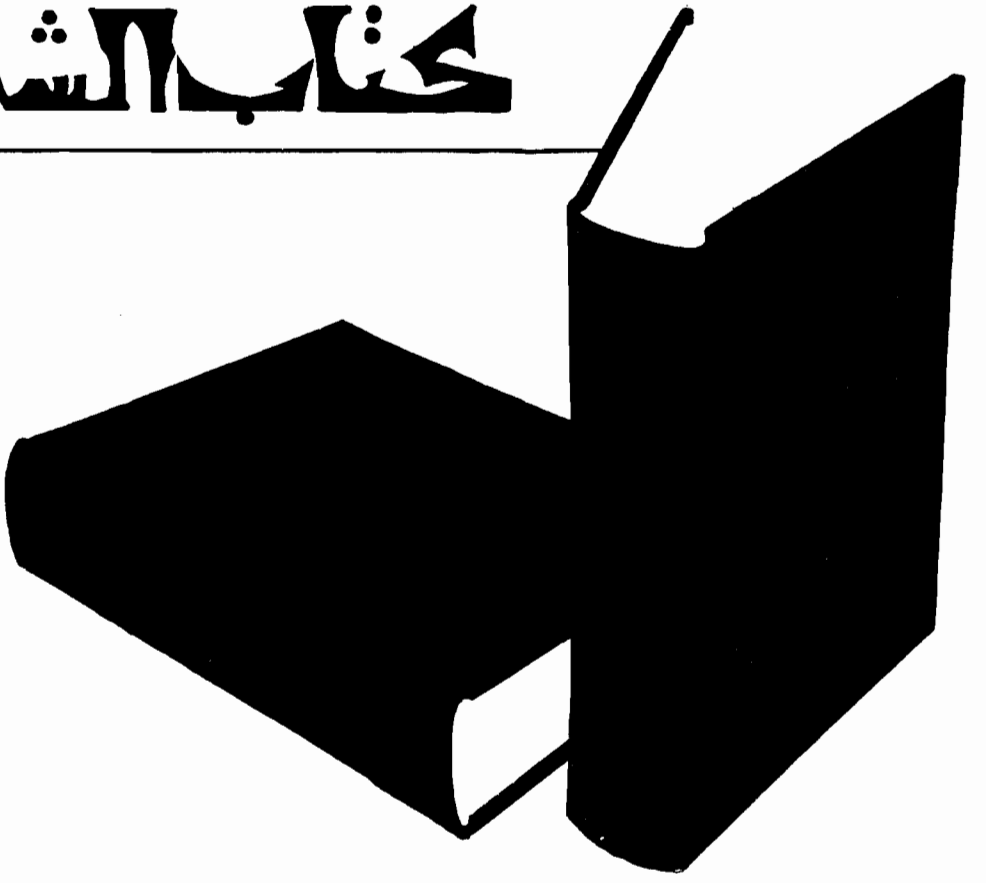

طوق الحمامة

لابن حزم

عرض
يوسف المشاروني

طوق الحمامة كتاب من بين عدة كتب تثبت أن تراثنا العربى تناول أرق الموضوعات بأرق لغة ، وان فى هذا التراث محاولات مبكرة عبقرية لما يعرف اليوم بعلم النفس ، ومن يقرأه يدرك طواعية اللغة العربية للتعبير عن ادق الخلجات ، وان ما يقال عن قصورها ليس الا قصورا من متكلميها فى التعرف عليها والألفة بمفرداتها وتراكيبها

« كلفتنى ـ أعزك الله ـ أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة » .

هكذا

يبدأ ابن حزم الأندلسى رسالته فى الحب المعروفة باسم «طوق الحمامة» وابن حزم امام وفقيه وسياسى اندلسى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى اذ توفى عام ٤٥٦ هـ . أى منذ حوالى الف عام . ومن « طوق الحمامة » نعرف الكثير عن ابن حزم حتى تاريخ كتابته هذه الرسالة ، فهو يذكر لنا بعض اساتذته الذين درس عليهم (٢) كما نعرف أن اخا له توفى بالطاعون

(١) أمكن الرجوع الى ثلاث طبعات لطوق الحمامة ، اقدمها طبعة ليدن ، ١٩١٤ م . وبه مقدمة بالفرنسية للدكتور بتروف الأستاذ بجامعة بطرسبرج . والثانية نشرتها مكتبة عرفة بدمشق ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١ م . وبها مقدمة للاستاذ محمد البزم . والثالثة نشرتها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، ١٩٥٩ م . تحقيق الأستاذ محمد كامل الصيرفى وبها مقدمة للاستاذ ابراهيم الابيارى ، وهذه الطبعة الاخيرة هي التى اشرنا الى ارقام صفحاتها .

(٢) الطوق ص ٧٠ ـ ٧٢ .

فى قرطبة عام ٤٠١ هـ . (١) كما توفى ابوه عام ٤٠٢ هـ (٢) كما نعرف من هذه الرسالة ان البربر ضربوا قصر اسرته البديع ببلاط مغيث (٣) وانه غادر قرطبة عام ٤٠٤ هـ (٤) واختار المرية لاقامته (٥) ويبدو انه استطاع ان يعيش هناك فى شىء من الهدوء الى ان خلع على بن محمود الحسنى المسمى بالناصر ـ بالاتفاق مع خيران صاحب المرية ـ الامير سليمان الاموى عام ٤٠٧ . ولما كان خيران يظن ان ابن حزم يتآمر لصالح الامويين فقد سجنه وصديقه احمد بن اسحاق بضعة اشهر ثم نفاهما ، وذهب الصديقان الى (حصن القصر) فتلقاهما حاكمه بالترحاب ولما علما انه قد نودى بالمرتضى عبد الرحمن بن محمد خليفة فى مدينة بلنسيه ، تركا مضيفهما بعد اشهر قلائل وذهبا الى هذه المدينة بطريق البحر ، حيث التقى ابن حزم باصدقاء آخرين (٦) ، ثم عاد الى قرطبة عام ٤٠٩ هـ . بعد غيبة ست سنوات عنها ابان حكم الخليفة القاسم بن محمود (٧) . كما نعلم من خاتمة رسالته أنه الفها وهو فى المنفى حتى ليقول ان الكلام فى مثل هذا الموضوع انما هو من فراغ القلب ، ويعجب لاستطاعته حفظ شىء وتذكر فانت بالرغم مما هو فيه (٨) .

وقد امكن معرفة هذه المعلومات عن ابن حزم من رسالته طوق الحمامة لانه يلجأ فى حديثه فيها عن الحب الى الاستدلال على ما يقول من مصدرين هما : تجربته الشخصية ، وحديث الثقات من اهل زمانه . ولكنه لايفصح عن اسماء فيما يرويه حفظا للاسرار والصداقات ، الا اذا كانت القصة مشهورة ، فلا داعى لاخفاء اسماء اصحابها ، او لان صاحبهما قد اجاز ذكر اسمه (٩)

١

تعريف :

يبدأ ابن حزم رسالته بتعريف الحب فيقول ان الحب أوله هزل وآخره جد ، وهو لا يوصف بل لابد من معاناته حتى تعرفه . والدين لا ينكره والشريعة لا تمنعه اذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد احب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير (١٠) .

والمحبة انواع ، وافضلها محبة المتحابين فى الله عز وجل ، ومحبة القرابة ، ومحبة الالفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعه المرء عند اخيه ، ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين بسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التى لا علة لها الا اتصال النفوس المقسومة . وكل هذه الانواع تتغير بتغير اسبابها الا محبة العشق الصحيح فهى التى لا فناء لها الا بالموت . وفى هذه الحال يشغل البال ويحدث الخبل والوسواس والنحول وسائر دلائل الحزن على نحو لايحدث مثله فى سائر اجناس الحب (١) .

وهنا يجدر ان نشير الى رأى مخالف ابداه ابن حزم فى رسالة اخرى له هى رسالته فى (تهذيب الاخلاق) ، حين رد الحب فى جميع صوره الى سبب نفسى واحد بدلا من هذه الأسباب المتعددة ، فالطمع هو محور الحب فى « تهذيب الأخلاق » كما انه من ناحية اخرى سبب لكل هم . فهناك انواع من الحب تختلف فى الظاهر ، لكنها ترجع كلها الى اصل واحد هو الطمع فيما يمكن نيله من المحبوب ، حتى من يقر برؤية الله ، ويحن الى تحقيقها تجده لا يقنع بشىء دونها لطمعه فيها ، ولكن الذى لا يؤمن بها ، اى لا يطمع فيها ، لا يحس بها أصلا . وترى المسلم يحب ابنة عمه حبا مفرطا على قدر طمعه فى ان تصير اليه . بينما تجد النصرانى الذى لا يحق له الزواج من ابنة عمه (٢) لايحس نحوها بشىء اطلاقا . وترى هذا النصرانى نفسه يعشق اخته من الرضاع بينما لا يحس المسلم بعاطفة نحوها لقلة طمعه فيها .

وعلى اساس الطمع يمكن ترتيب أنواع المحبة : فادنى اطماع المحبة ممن تحب ، الحظوة منه والرفعة لديه والزلفى عنده اذا لم تطمع فى أكثر ، وهذه غاية اطماع المحبين لله تعالى . ثم يزيد الطمع فى المجالسة ثم فى المحادثة والمؤازرة ، وهذه اطماع المرء فى سلطانه وصديقه وذى رحمه . واقصى اطماع المحب ممن يحب ، المخالطة بالاعضاء (٣) .

ومعنى هذا ان الطمع لدى ابن حزم فى رسالته « تهذيب الأخلاق » هو الذى يوجد هذه الظاهرة الانسانية التى تسمى الحب ، فتتشكل بمختلف الأشكال وتصبح فعالة فى حياة صاحبها ، وهو ما لم يشر اليه اطلاقا فى كتابه طوق الحمامة الا حين تحدث عن محبة الطمع فى جاه المحبوب ، كما انها فكرة تختلف تماما عن رد العشق بالذات الى تلك الفكرة الاسطورية التى تدور حول النفوس المقسومة على نحو ما ذكر فى رسالته « طوق الحمامة » .

الفرق بين المحب والمحبوب :

وثمة فكرة نكتشف ان ابن حزم يؤكدها من اول كتابه الى آخره تلك هى تفرقته بين المحب والمحبوب ، فليس الحب لديه علاقة متبادلة تتعادل فيها مسئولية الطرفين ، بل هى اندفاع من احدهما وقبول او اعراض من الطرف الآخر ، ولهذا تختلف التزامات كل من الطرفين ازاء الآخر .

ونحن نلتقى بأول تفرقة بين المحب والمحبوب عندما يذكر ابن حزم نظرية النفوس المقسومة ليعلل بها الحب ، وهى نظرية لها اصل اغريقى تقول ان كل نصف يبحث عن نصفه الذى انفصل عنه ، وان كان ابن حزم يحاول أن يردها الى الآية

(١) الطوق ص ١١٧ .
(٢) الطوق ص ١١١
(٣) الطوق ص ٩٤ـ١١٧ .
(٤) الطوق ص ١١٢ .
(٥) الطوق ١١٨ .
(٦) الطوق ص ١١٨ .
(٧) الطوق ص ١١٢ .
(٨) الطوق ص ١٥٤ .
(٩) الطوق ص ٢ .
(١٠) الطوق ص ٥ .

(١) الطوق ص ٧ .
(٢) لعله عرف كان سائدا لدى بعض الطوائف المسيحية فى عهد ابن حزم .
(٣) من رسالة ابن حزم فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل ، مضمنة فى « رسائل ابن حزم » تحقيق الدكتور احسان عباس ، مكتبة الخانجى والمثنى ، مصر ، ص ١٣٧ ـ ١٣٩ .

الكريمة « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » . ويعلق قائلا : فجعل علة السكون انها منه . ثم يفند ما يقال عن اسباب الحب الاخرى : فلو كان سببه حسن الصورة الجسدية لوجب الا يستحسن الاجمل الاقل جمالا ، ونحن نجد كثيرين يحبون من هم أدنى منهم . ولو كان السبب الاتفاق فى الأخلاق لما احب المرء من لا يساعده ولا يوافقه . وحين تكون المحبة لسبب من الاسباب فانها تفنى بفنائه (١) .

اما الذى لا يحب من يحبه فان نفسه تكون محاطه ببعض الحجب المحيطة بها من الطبائع الارضية فلا تحس بالجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها حيث هى ولو أنها تخلصت من هذه الحجب لاستويا فى المحبة . وهذا هو الفرق بين المحب والمحبوب فنفس المحب لا يحجبها شىء من هذه الطبائع الأرضية وهى تعلم الجزء الذى كان متصلا بها فتطلبه وتقصده ، وتشتهى علاقاته (٢) .

لهذا لا يتفق ابن حزم مع هؤلاء الذين يرون تجنب الأحباء الذين لا يبادلونهم حبا بحب ، لأنه يرى أن الحب ليس اختيارا بل اضطرارا . ولو أمكن الا تبذل نفسك لما بذلتها . ولهذا ينكر ابن حزم قول القائلين بأن صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة فى النفس لأن المحبوب شخص لا نظير له فى نظر المحب ، له أن يعفو ويرضى متى شاء (٣) . وتمشيا مع هذا يجيز ابن حزم أن يرضى المحب رغبته من محبوبه سواء سخط أو رضى ، ويرى انه من الممكن ان يحقق المرء لذته كاملة فى هذه الحال(٤) مادام تبادل العواطف ليس شرطا للمحب .

وعند الحديث عن علاقة الحب بالملل يعود ابن حزم فيؤكد الفرق بين موقف كل من المحب والمحبوب . فالمحب لا يجب أن يعرف الملل طريقه اليه ، ولذلك يبعد هذه الصفة عن المحبين ويجعلها فى المحبوبين ، فهم أهل التجنى والمقاطعة . أما اذا اتصف بها محب فلن يصفو له صديق ، ولن يصح له اخاء ، وهو لا يثبت على عهد ، ولا صبر على الف (٥) .

كذلك يفرق ابن حزم بين وفاء المحب ووفاء المحبوب ، فالوفاء أوجب على المحب لأنه هو الذى بدأ بالمودة ولم يجبره أحد على ذلك . أما المحبوب فهو المقصود نحوه وهو مخير فى القبول أو الرفض ، فان قبل فغاية الرجاء ، وان أبى فلا يستحق اللوم .

وللوفاء شروط على المحبين لازمة : أولها أن يحفظ عهد محبوبه ويرعى غيبته ، وتستوى علانيته وسريرته ، ويطوى شره وينشر خيره ، ويغطى على عيوبه ، ويحسن (بتشديد السين) افعاله ، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ، ويرضى بما حمله ، ولا يكثر عليه بما ينفر منه . وعلى المحبوب أن ساواه فى المحبة مثل ذلك ، وان كان دونه فيها فليس للمحب ان يكلفه الصعود الى مرتبته ، ويكفيه منه حينئذ كتمان خبره والا يقابله بما يكره ولا يخيفه به (٦) .

(١) الطوق ص ٦ .
(٢) الطوق ص ٧ ، ٨ .
(٣) الطوق ص ٤٣ ، ٤٦ .
(٤) الطوق ص ٤٧ .
(٥) الطوق ص ٧٣ .
(٦) الطوق ص ٨٠ ، ٨١ .

وعاقبة كل حب أحد أمرين ، أما الموت واما السلو . والسلو فى التجربة الجميلة ينقسم قسمين : سلو طبيعى وهو المسمى بالنسيان ، يخلو به القلب ويفرغ به البال ، ويكون الانسان كأنه لم يحب قط . والثانى السلو المسمى بالتصبر ، فترى المرء يظهر التجلد ، ويرى ان بعض الشر أهون من بعض ، وهو ليس بناس ولكنه ذاكر .

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة ، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يكون تقدير السالى أو ذمه . وهنا يقيم ابن حزم تقسيمه لأسباب السلو على أساس تفرقته بين المحب والمحبوب . فمنها ثلاثة من المحب هى : الملل ، ومن كان سلوه عن الملل فليس حبه حقيقة ، انما هو طالب لذة ، والسالى من هذا الوجه ناس مذموم . ومنها الاستبدال ، وهو اقبح من الملل ، وصاحبه احق بالذم . ومنها حياء طبيعى فى المحب يحول بينه وبين الاعتراف بحبه لمن يحب ، وبطول الزمن تبلى المودة ويحدث السلو . وهذا وجه ان كان السالى عنه ناسيا فهو ليس منصفا ، اذ منه جاء سبب الحرمان ، وان كان متجلدا فليس بملوم اذ آثر الحياء على لذة نفسه .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المحب ، ثم هناك اسباب اربعة من قبل المحبوب : أولها الهجر ، ويكون ممن وصلك ثم قطعك بسبب كلام نقله واش ، او لذنب واقع ، أو لشىء قام فى النفس ، ولم يمل الى سواك . والمحب الناسى هنا ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب ، لأنه لا شىء يلزم المحبوب ، وتذكر المحب عهد الالفة أمر واجب . ولكن المحب السالى على جهة التصبر والتجلد ها هنا معذور ، اذا رأى الهجر متماديا ولم ير للوصال علامة ولا للمراجعة دلالة .

اما ثانى اسباب السلو من قبل المحبوب ان يكون نفارا منه وانزواء قاطعا للاطماع ، وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه معذور وغير ماوم اذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضى المحافظة .

ومنها جفاء يكون من المحبوب . ومنها الغدر الذى لا يحتمله احد ولا يلام السالى فى هذه الحال ناسيا أو متجلدا ، بل يقع اللوم على من يصبر عليه (١) . والفرق بين الجفاء والغدر هو الفرق بين من مال الى غيرك دون أن يتقدم لك ومن وصلك ثم قطعك لغيرك ـ وكلاهما مختلف عن الهجر .

وهكذا نجد أن ابن حزم لا يشترط تبادل العواطف لظاهرة الحب ، بل انه يرى ـ على العكس من ذلك ـ أن من طبيعة الحب أن يكون هناك محب ومحبوب ، وان يختلف موقف كل منهما من الآخر ، ومما تمليه عليه عاطفته .

الفرق بين الحب والشهوة :

كذلك يفرق ابن حزم بين الحب والشهوة على اساس التفرقة بين الظاهر والباطن فالشهوة هى حب الصورةالحسنة ، اما الحب فيكون حين تميز النفس شيئا وراء هذه الصورة (٢). لهذا فان من يدعى انه يحب من نظرة واحدة لا يكون حبه

(١) الطوق ص ١٠٥ ـ ١١٤ .
(٢) الطوق ص ٩ .

الاضربا من الشهوة (١) ، لانه ـ تمشيا مع التفرقة السابقة بين الحب والشهوة ـ لا يكون قد تعلق الا بالصورة الحسنة ، اما معرفة ما وراء هذه الصورة فيتطلب وقتا أطول .

كذلك من يزعم أنه يحب اثنين ، فانما هذه شهوة وتسمى حبا على سبيل المجاز (٢) ، فابن حزم يؤمن بالوحدانية في الحب لأنه ـ كما قال في شعره الذى استشهد به ـ شبيه بالايمان بالله واحد ودين واحد .

كذلك لا يجب الخلط بين المحب والملول ، فالشخص الملول طالب لذة ومبادر شهوة (٣) .

شخصية دونجوانية في الأدب العربى :

وحين يتحدث ابن حزم عن الملول فانه يضرب مثلا بمن يتصف بصفات هى أقرب الى الدون جوانيه . ذلك هو أبو عامر محمد بن عامر الذى كان لا يثبت على حب النساء ، كما كان لا يثبت على حب الأصدقاء . ولا عجب فما الأندلس واسبانيا الا ارض واحدة انبتت شخصية أبى عامر ومن بعده شخصية دونجوان ، فلنستمع الى ابن حزم وهو يصفه بقوله :

ولقد كان أبو عامر يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم مايكاد ان يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، فاذا أيقن تصيرها اليه عادت المحبة نفارا ، وذلك الانس شرودا ، والقلق اليها قلقا منها ، ونزاعه نحوها نزاعا عنها ، فيبيعها بأوكس الاثمان . هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عددا عظيما . وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والنبل والذكاء والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض . وأما حسن وجهه وكمال صورته فشىء تقف الحدود عنه .. ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون الخطور على باب داره .. لا لشىء الا للنظر منه ، ولقد مات من محبته جوار كن علقن أوهامهن به ، ورثين له فخانهن مما أملنه منه ، فصرن رهائن البلى وقتلتهن الوحدة .

وأما اخوانه فانه تبدل لهم في عمره ـ على قصره ـ مرارا . وكان لا يثبت على زى واحد كأبى براقش ، حينا يكون في ملابس الملوك ، وحينا يكون في ملابس الفتاك (٤) .

ولئن كان ابن حزم قد استطاع ان يقدم لنا بحياد هذه الصورة الدرامية المعبرة عن الدونجوانية ، فقد سبقه ابن المقفع في كتابه « الأدب الكبير » الى تناول الدون جوانية كفكرة عامة متحيزا ضدها مسفها أصحابها ، فنراه يقول :

واعلم ان أوقع الامور في الدين وانهكها للجسد واتلفها للمال واقتلها للعقل وأزراها للمروءة واسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء .

ومن البلاء على المغرم بهن انه لا ينفك يأجم (أى يكره) ما عنده وتطمح عيناه الى ما ليس عنده منهن . وانما النساء أشباه . وما يتزين في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة بل كثيرا ما يرغب عنه الراغب مما عنده ، أفضل مما تتوق اليه نفسه منهن . وانما المرتغب عما في رحله (أى بيته) منهن الى ما في رحال الناس كالمرتغب عن طعام بيته الى ما في بيوت الناس ، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام عن طعام وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلا وتفاوتا مما في رحالهم من النساء .

ومن العجب ان الرجل الذى لا بأس بلبه ورأيه يرى المرأة من بعيد متلفعة في ثيابها : فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر . ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح واذم الدمامة فلا يعظه ذلك ولا يقدلعه عن امثالها ولا يزال شغوفا بما لم يذق ، حتى ولو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن ان لها شانا غير شان ما ذاق . وهذا هو الحمق والشقاء والسفه (١) .

تتويج الحب على العواطف الاخرى :

والتفرقة بين الشهوة والحب ليست الا حلقة من حلقات اتجاه أعم يبدو في الرسالة من حين لآخر ، ذلك هو تتويج الحب على جميع العلاقات الأخرى ، واعطاؤه الأولوية والصدارة على بقية العواطف البشرية .

فعندما يتحدث ابن حزم عن الوصل يتحدث عنه بأسلوب كله رقة وشاعرية واجلال ، فيقول انه لولا ان الدنيا دار محنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا ان وصل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الاراجى ثم يقول : ولقد جربت اللذات على تصرفها .. وأدركت الحظوظ في اختلافها ، فما للدنو من السلطان ، ولا المال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغيبة ، ولا الامن بعد الخوف ، ولا الترويح على المال ، من الموقع في النفس ، ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر . ووصل حبيب جميل الأخلاق حسن الأوصاف احسن من اشراق الأزاهير بعد انقشاع السحب ، ومن خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ومن تانق القصور البيض قد احدقت بها الرياض الخضر (٢) . وما في الدنيا حالة تعدل محبين عدما الرقبا ، وامنا الوشاة ، وسلما من البين ، ورغبا عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقدا العذال ، وتوافقا في الأخلاق وتكافيا في المحبة ، وأتاح الله لهما رزقا دارا ، وعيشا قارا ، وزمانا هاديا . وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب في الحال ، وطالت صحبتهما واتصلت الى وقت حلول الموت الذى لامرد له ولابد منه (٣) . ثم مايلبث ابن حزم ان ينتبه الى أن ، هذا عطاء لم يحصل عليه أحد .

كذلك يستخدم صيغة التفصيل عندما يتحدث عن فرحة محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ، وذل محب هيمان بين يدى محبوب غضبان . فيقول : ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدول ، فما رأيت اشد تبجحا ولا اعظم سرورا بما هو

---

(١) الطوق ص ٢٥ .
(٢) الطوق ص ٢٦ .
(٣) الطوق ص ١٠٧ .
(٤) الطوق ص ٤٣ـ٧٤

(١) ابن المقفع : الأدب الكبير والأدب الصغير ، دار الفكر ، مكتبة البيان ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٢) الطوق ص ٦٠ .
(٣) الطوق ص ٦٣ .

فيه من محب ايقن ان قلب محبوبه عنده ووثق بميله اليه وصحة مودته له .

ثم يقول : وحضرت مقام المتلدين بين السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رايت اذل من موقف محب هيمان بين يدى محبوب غضبان (١)

من مظاهر الحياة الاجتماعية :

والرسالة بعد هذا تكشف عن اكثر من مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصر ابن حزم . فمما يلفت انتباهنا انه لا يفرق اطلاقا بين حب الرجل للمرأة والحب بين افراد الجنس الواحد ، ويذكره على انه شىء عادى معترف به ، وهو ليس مجرد علاقة جنسية بل هو هيام وغرام على نحو ما يقع بين الرجل والمرأة . فنراه مثلا يقول بكل بساطة : ويحكى عن الحسن بن هانى ، أنه كان مفرما بحب محمد بن هارون المعروف بابن زبيدة .. ومثل هذا كثير فى الرسالة (٢) ، وهو امرشاع فى كثير من المجتمعات الأخرى مثل المجتمع الاغريقى .

وقد حاول اخوان الصفا من قبله ان يفسروا هذا اللون من العلاقات ، فقالوا انه يوجد فى المجتمعات التى يحتاج فيها الأطفال والصبيان الى التعليم على أيدى أساتذة بالغين ، فمن اجل هذا يوجد فى الرجال البالغين رغبة فى الصبيان ومحبة للغلمان ليكون ذلك داعيا لهم الى تاديبهم وتهذيبهم وتكميلهم للبلوغ الى الغايات المقصودة بهم . وهذا موجود فى اكثر الامم التى لها شغف فى تعلم العلم مثل اهل فارس والعراق والشام والروم وغيرها من الأمم ، وأما الأمم التى لا تتعاطى العلوم والصنائع والأدب مثل الاكراد والاعراب والزنج والترك ، فانه قل ما يوجد فيهم ولا فى طباعهم الرغبة فى عشق الغلمان (٣) .

لكننا ـ من ناحية اخرى ـ لا نكاد نعثر على محاولة لابن حزم يربط فيها بين اشكال الحب وامكانياته من ناحية ، والأوضاع الاجتماعية من ناحية اخرى بينما نجد اديبا مثل الجاحظ استطاع ان يكشف تلك العلاقة قبله بنحو قرنين ، فنجده يقول : ورجلان من الناس لا يعشقان عشق الاعراب : أحدهما الفقير المدقع فان قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشان لان فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر ونفاذ النهى وفى ملك رقاب الامم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق (٤) .

كما يعلل الجاحظ ميل الرجال الى الاماء أكثر من ميلهن الى الحرة من النساء ، بان الرجل قبل أن يملك الأمة قد تامل فى كل شىء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فاقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، أما الحرة فيستشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيرا ، والرجال بالنساء أبصر ، وانما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، واما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فانها لاتعرفها (١) .

من الجوانب النفسية لابن حزم :

وكما استطعنا ان نلم بطرف من مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصر ابن حزم من رسالته « طوق الحمامة » ، وكما استطعنا ان نلم بطرف آخر منها عن حياته السياسية والاجتماعية ، فاننا نستطيع ان نطلع على بعض الجوانب النفسية له . ذلك لأن منهج ابن حزم فى رسالته قائم على اساس عرض الراى أولا بطريقة موضوعية ، ثم الاستشهاد على ما يقول بقصص وقعت له احيانا ولغيره احيانا وبابيات من الشعر له قالها فيما شاهده أو عاناه . فهو حين يتحدث عن علامات الحب ، يقول ان البكاء منها . وهو عنده اقرب ان يكون حالة نفسية قد يكون مصحوبا بالدمع وقد لا يكون . وابن حزم من النوع الأخير ، اى ممن يبكون بلا دموع ، وهو يود لو تدمع عيناه لكنهما لاتجيبانه الا فى الندوة بالشىء اليسير (٢) .

كذلك نعرف ان ابن حزم لايعرف الحب من أول نظرة ، بل هو يعلن استنكاره لمن يدعيه ولا يعده الا ضربا من الشهوة على نحو ماسبق ذكره . ويتحدث من خلال خبرته قائلا : وما لصق باحشائى حب قط الا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهرا طويلا ، واخذى معه فى كل جد وهزل . ثم يعمم هذا الطبع قائلا : ولا أقول هذا فى الاخوان وحدهم ، لكن فى كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم . وأن حنينى الى كل عهد تقدم لى ليفصنى بالطعام ويشرقنى بالماء .. الى ان يقول : وقد استراح من لم تكن هذه صفته (٣) .

وحين يفرد بابا لمن احب صلة لم يستحسن بعدها غيرها لما يخالفها يذكر انه احب فى صباه جارية له شقراء الشعر فما استحسن من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو كانت اجمل من فى الدنيا . ثم يعقب قائلا : وانى لأجد هذا فى اصل تركيبى من ذلك الوقت ، لا تواتينى نفسى على سواه ، ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه وعلى ذلك جرى الى ان وافاه اجله (٤) .

والتفرقة بين الحب والمحبوب التى يبثها خلال رسالته فكرة وثيقة الصلة بنفسيته ، فقد ساله أحدهم يوما : اذا كره من احب لقائى وتجنب قربى فماذا أصنع ؟ فنصحه ابن حزم ان يسعى فى لقائه وان كره ، فرد عليه محدثه بانه لايرى ذلك بل يفضل مراد محبوبه على مراده ، ويصبر ولو كان فى ذلك الموت . فقال له ابن حزم : انى انما احببته لنفسى

---

(١) الطوق ص ٧١ .

(٢) الطوق صفحات : ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٨ ، ١١٦ و١١٩ ، ١٣٠ ، ١٤٥ .

(٣) رسائل اخوان الصفا ، جـ ٣ ، عنى بتصحيحه خيرالدين الزركلى ، المكتبة التجارية ،القاهرة ، ١٩٢٨ ، الرسالةالسادسة من النفسانيات العقليات فى ماهية العشق ، وهى الرسالة السابعة والثلاثون من رسائل اخوان الصفا ، ص ٢٦٧ـ٢٦٨

(٤) من مجموعة رسائل الجاحظ ، ط ١ ، مطبعة التقدم ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ . الرسالة السابعة فى العشق والنساء ص ١٦٦ .

(١) المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٢) الطوق ص ١٧ـ١٨ .

(٣) الطوق ص ٢٥ .

(٤) الطوق ص ٢٨ .

ولا لتذاذها بصورته ، فانا اتبع قياسى واقود اصلى واقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها (١) .

ولئن كنا نتردد فى الموافقة على هذا الاتجاه الاخير ، فاننا ما نلبث أن نعجب بصفة أخرى فى طبيعة ابن حزم ، فهو يسخر ممن يزعم ان دوام الوصل يودى بالحب ، ويرى أن هذه صفة أهل الملل . أما هو فيؤمن انه كلما زاد الوصل زاد الاتصال . ومرة أخرى يلجأ الى خبرته وطبيعته فيعلن قائلا : دعنى اخبرك أنى ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادنى الا ظمأ ، ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الانسان وراءها مرمى ، فما وجدتنى الا متزيدا ، ولقد طال بى ذلك فما احسست بسآمة .. ووجدتنى كلما ازددت دنوا ازددت ولوعا (٢) .

وابن حزم الذى يعلن فى رسالته ان لاكرامة فى الحب ، شديد الحرص على كرامته فى غير هذا الموقف . انه يصرح بانه امتحن بالوقوف بين يدى سلطان غاضب ويدى محبوب ساخط ، فكان فى الحالة الأولى أشد من الحديد ، لا يجيب الى الدنية ، ولا يساعد على الخضوع ، وفى الحالة الثانية الين من القطن ، يبادر الى أقصى غايات التذلل (٣) .

فابن حزم رجل وفى فى حبه ، وكما ان حبه لايلصق به الا بعد زمن طويل ، فانه لايفارقه حتى الموت . وهو الذى قال ان ما دخل عسيرا لم يخرج يسيرا . ويذكر قصة جارية له أحبها ثم ماتت وكانت سنه اذ ذاك دون العشرين وهى دونه فى السن .. فاقام سبعة اشهر لا يتجرد عن ثيابه ولا تفتر له دمعة على جمود عينه . حتى يقول : فوالله ماسلوت حتى الآن .. وما طاب لى عيش بعدها . ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها (٤) .

ولهذا فابن حزم رجل معذب بين وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب ، والباطن والظاهر ، وعزة نفس لا تقبل الظلم . حتى انه ليتبرم بحياته بسبب تمزقه بين هاتين الطبيعتين ، وما يسببه له هذا التمزق من نكد يجعله لايهنأ بعيشته (٥) .

طوق الحمامة والدراسات المعاصرة :

وملاحظة النفس تتصل بما يعرف اليوم بالمنهج الاستبطانى اما الاستشهاد الادبى فليس غريبا عن علم النفس المعاصر ، لاسيما مدرسة التحليل النفسى التى تعتبر الادب ـ والفن بوجه عام ـ من بين الوثائق التى تبرهن على صحة نظرياته . لهذا فان كتاب طوق الحمامة وما يشبهه من كتب تناولت موضوع الحب يعتبر ـ كما سبق أن قلنا ـ محاولات مبكرة فى علم النفس . بل نحن نعثر على ملاحظات متناثرة فى طوق الحمامة تكاد تتفق وما أعلنه بعض أقطاب علم النفس المعاصر .

فقد نبه ابن حزم الى ما رددته مدرسة التحليل النفسى فى القرن العشرين من أن كل حب يخفى وراءه كراهية فى اللاشعور ، وهو يعلل ذلك بما نقوله فى أمثالنا الشعبية أن كل ما يزيد عن حده ينقلب الى ضده . فيقول ان الفرح ـ كالغم ـ اذا افرط قتل ، والضحك ـ كالبكاء ـ اذا كثر واشتد اسال الدمع من العينين . ولهذا نجد أن المحبين اذا تأكدت بينهما المحبة تأكدا شديدا كثر تضادهما فى القول تعمدا ، وخروج بعضهما على بعض فى كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها . وهذا أصل العتاب بين المحبين .

ويقول انه يعلم من كان احسن الناس ظنا وارحبهم صدرا ، ثم لا يحتمل ممن يحب شيئا ولا يقع له معه ايسر مخالفة حتى يبدى من سوء الظن فنونا . وترى المحب ـ اذا لم يثق بنقاء طوية محبوبه له ـ كثير التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبل ذلك .

ولكن خلاف المحبين يتميز عن غيرهم ، بينما نرى المحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف ، لا نلبث أن نراهما قد عادا الى أجمل الصحبة ، وانصرفا فى ذلك الحين بعينه الى المضاحكة والمداعبة ، هكذا فى الوقت الواحد مرارا . واذا رايت هذا من اثنين فلا يخالجك شك فى أن بينهما سرا من الحب دفينا (١) .

كذلك يتحدث ابن حزم عما يعرف فى التحليل النفسى بالتثبيت ، ويفرد له بابا عنوانه « من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها » يقول فيه ان للحب حكما على النفوس ماضيا ، وسلطانا قاضيا ، يحل المبرم ، ويحلل الجامد. ويضرب لذلك عدة امثلة منها أنه يعرف من كان أول علاقته بجارية تميل الى القصر فما احب طويلة بعد هذا » (٢) .

كذلك لا يهمل ابن حزم أثر الناحية الجنسية على الحب على النحو الذى يتحدث به علماء النفس فى العصر الحديث ، وهو يشرح ذلك شرحا صريحا حين يقول : اذ الاعضاء الحساسة مسالك الى النفوس ومؤديات نحوها (٣) .

ولقد استطاع ابن حزم أن يفطن فى ذلك الزمن البعيد الى أهمية العمل بالنسبة للمرأة ، فيقول ان النساء اقدر من الرجال على ان يكن الصديق المساعد فى الحب لا سيما العجائز منهن ، لانهن يئسن من انفسهن فانصرف اشفاقهن الى غيرهن . ثم يقول انه لا يعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء الا انهن متفرغات البال من كل شىء الا من الغزل واسبابه . أما الرجال فمشغولون بكسب المال وصحبة السلطان وطلب العلم ومكابدة الاسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الأرض ، وهذا كله ضد الفراغ ، صارف عن طريق البطل . وفى سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقى عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها ابد الدهر لأنهم يقولون : ان المرأة اذا بقيت بغير شغل انما تشوق الى الرجال (٤) .

---

(١) الطوق ص ٤٦ .
(٢) الطوق ص ٦٢ .
(٣) الطوق ص ٧١ .
(٤) الطوق ص ٩١ .
(٥) ص ١١٤ـ١١٥ .

(١) الطوق ص ١٣ ـ ١٤ .
(٢) الطوق ص ٢٧ ـ ٣٨ .
(٣) الطوق ص ٥٠ .
(٤) الطوق ص ١٥٣

منهج ابن حزم فى الرسالة :

ويختتم ابن حزم رسالته بايضاح منهجه فيقول انه اقتصر على الحقائق المعاومة التى لا يمكن وجود سواها اصلا ، ورغم انه لم يمتنع عن ذكر اشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها مثل الافراط فى صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالامطار وانها تروى السفُر ، وعدم النوم البتة ، وانقطاع الغذاء جملة الا انها أشياء لاحقيقة لها ، ولكل شىء حد ، فالنحول قد يعظم ولو صار حيث يصلونه لكان فى قوام الذرة او دونها ، والسهر قد يتصل ليالى ، ولكن لو عدم الغذاء اسبوعين لهلك (١)

كذلك يتوقع ابن حزم وجود بعض المتعصبين ممن ينكر عليه التاليف فى هذا الموضوع ويقول : انه خالف طريقته وتجافى عن وجهته . ولكنه لايحل لاحد أن يظن فيه غير ماقصده (٢) وكان قد أشار فى مقدمة رسالته انه لابد من استجمام النفس بشىء من الباطل ليكون عونا على الحق . وفى بعض الأثر : أريحوا النفوس فانها تصدأ كما يصدأ الحديد (٣) .

- ٢ -

بهذه الروح المتفتحة ، التى تجمع بين الدقة وعدم التزمت ، كتب ابن حزم رسالته . ويبدو ذلك واضحا عندما يقسمها الى ثلاثين بابا : منها فى اصول الحب عشرة ، وفى أعراضه وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا ، ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة ، ومنها بابان ختم بهما رسالته هما : باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفف ، ليكون خاتمة كلامه الحض على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٤)

علامات الحب :

بعد أن يبدأ ابن حزم رسالته بتعريف الحب ينتقل الى الحديث عن علاماته ، وللحب علامات : أولها ادمان النظر ، ومنها الاقبال بالحديث فما يكاد الحب يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد غير ذلك ، وينصت لحديثه اذا تحدث ، ويستغرب كل ما يأتى به وكأنه عين المحال ، ويصدقه ان كذب ، ويوافقه وان ظلم ، ويشهد له وان جار ، ويتبعه كيف سلك واى وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الاسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه ، وترك الأعمال التى تضطره للبعد عنه ، والاستهانة بكل خطب جليل يتسبب فى مفارقته ، والتباطؤ عند القيام عنه .

ومنها بهت يقع ، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجاة وطلوعه بغتة . ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه او عند سماع اسمه فجاة . ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعا به قبل ذلك ، كأنه الموهوب له والمسعى فى حظه . كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب فى نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وفقير تجمل ، وكبير السن تصابى ، وناسك تفتك ، ومصون تبذل .

وهذه العلامات تكون قبل اشتعال نار الحب ، فاذا تمكن وأخذ مأخذه ، فحينئذ ترى الحديث سرارا ، والاعراض عن كل ما حضر الا عن المحبوب جهارا .

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر ، الانبساط الكثير الزائد ، والمجاذبة على الشىء يأخذه احدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالاتكاء ، والتعمد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الاناء ، وتحرى المكان الذى يقابله فيه .

ومن علاماته أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى اخباره ، ولا يرتاح لشىء ارتياحه لها ، ولا يفصح عن ذلك مخافة أن يفطن السامع ويفهم الحاضر .

ومن علاماته حب الوحدة والانس بالانفراد ، ونحول الجسم دون مرض يكون فيه .

ومن اعراض المحبين السهر ، وقد أكثر الشعراء فى وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب ووصفوا طول الليل .

ويعرض للمحبين القلق عند أحد أمرين : احدهما عند رجائه لقاء من يحب فيحول دون ذلك حائل . والثانى حين يقع بينهما سوء فهم ، فاما أن يذهب القلق أن رجا العفو ، واما ان يصير القلق حزنا وأسفا ان تخوف الهجر .

ومن علامات الحب أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا اقرب لديه من اهله ونفسه .

ومن أعراضه الجزع الشديد عندما يرى أعراض محبوبه عنه . والبكاء من علامات المحبين ولكنهم يختلفون فى ذلك ، فمنهم من هو غزير الدمع ومنهم من هو عديم الدمع .

ومن علاماته مراعاة المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن اخباره ، حتى لا تسقط عنه صغيرة ولا كبيرة ، وتتبعه لحركاته ، حتى لترى البليد يصيرا فى هذه الحالة ، والغافل فطنا .

أسباب الحب أو أصوله :

يبدأ ابن حزم بأبعد ما يمكن أن يكون من أسباب الحب ثم يتدرج الى ما هو أقوى . فيذكر أن من أسبابه شىء لولا انه شاهده لم يذكره لغرابته ، ذلك أنه شاهد شخصا قد أحب جارية رآها فى نومه ولا يعرفها .

ثم يقول ان من غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة ، وأكثر ما يقع هذا فى ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات مع اقاربهن من الرجال . ولكن هذا الحب لا يقوم على اساس لأن صاحبه يتخيل لنفسه صورة يتوهمها .

وكثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، وهو ينقسم قسمين : ان يعشق المرء شخصا لايعلم من هو ولا يدرى اسمه ولا مقره ، والثانى ان يعلق المرء ، من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ . ولكن كما أن أسرع الاشياء نموا أسرعها فناء ، وابطؤها حدوثا ابطؤها نفادا ، كذلك فان من أحب من نظرة واحدة انما يبرهن على أنه قليل الصبر سريع الهجر .

---

(١) الطوق ص ١٥٢ .
(٢) الطوق ص ١٥٣ .
(٣) الطوق ص ٢
(٤) الطوق ص ٣-٤ .

ومن الناس من لا تصح محبته الا بعد كثير المشاهدة ، وهذا هو الحب الذى يدوم ويثبت .

وأول مايستعمل أهل المحبة فى كشف مايجدونه الى أحبتهم التعريض بالقول : بانشاد شعر أو طرح لغز او تسليط كلام .. والناس يختلفون فى ذلك على قدر ادراكهم وعلى حسب ما يرون من أحبتهم من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة . وهكذا نجد أن طالب المودة يبتدىء بشىء من هذا القبيل ، فان رأى انسا وتسهيلا زاد ، وهو ينتظر الجواب اما بلفظ أو بهيئة الوجه أو الحركات .

وهناك نوع آخر من التعريض بالقول لا يكون الا بعد الاتفاق ومعرفة المحبة من المحبوب ، فحينئذ يقع التشكى وعقد المواعيد ، وبكلام يظهر لسامعه منه غير ما يذهبان اليه .

ثم يتلو التعريض بالقول ـ اذا وقع القبول والموافقة ـ الاشارة بلحظ العين ، ويتم به الوصل والقطع والوعد والتهديد ، والأمر والنهى ، وضرب الوعود ، والتنبيه على الرقيب ، والضحك والحزن ، والسؤال والجواب ، والمنع والعطاء . ثم يشرح ابن حزم لغة العيون : فالاشارة بمؤخر العين الواحد نهى عن الأمر ، وتفتيرها اعلام بالقبول ، وأدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .. وهكذا حتى يقول ان العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب الى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملا .. ولا شىء أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها ، لأنها ترى أجرام الكواكب فى الأفلاك البعيدة ، والسماء على شدة ارتفاعها وبعدها .. وليس هذا لشىء من الحواس الأخرى .

فاذا امتزج المحبان تلا ذلك المراسلة . ويبادر المحبون بمحو أثر هذه الرسائل ، فرب فضيحة كانت بسببها . وينبغى أن يكون شكل الرسالة ألطف الأشكال ، فالرسالة لسان فى بعض الأحيان ، اما لحصر فى الانسان واما لحياء واما لهيبة ، حتى ان لوصول الرسالة الى المحبوب وعلم المحب أنها قد وصلت لذة تقوم مقام الرؤية ، وان لرد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء . ولهذا كثيرا ماترى العاشق يضع الرسالة على عينيه وقلبه ويعانقها . وبعض أهل المحبة ممن يجيد التعبير لا يدع المراسلة رغم أنه قريب الدار من محبوبه يمكنه الاتصال به ، ذلك لانه يراها بابا من أبواب اللذة . ثم يشير ابن حزم الى من يسقون الحبر بالدمع أو بالريق ، والى من يكتبون رسائلهم بدمائهم .

وبعد حلول الثقة وتمام الاستئناس يدخل الرسول أو السفير كما يسميه . وهذا يجب تخيره لأنه دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعد الله تعالى ، فيجب أن يكون الرسول ذا هيئة ، حاذقا ، يكتفى بالاشارة ، حافظا للاسرار وفيا للعهد ، قنوعا ناصحا . ومن تعدى هذه الصفات كان ضرره على مرسله بمقدار ما نقصه منها .

أعراض الحب وصفاته :

ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان ، وجحود المحب ان سئل ، والتصنع باظهار الصبر ، وقد يمكن التمويه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال .

وربما يكون السبب فى هذا الكتمان خجل المحب ان يوصف بهذه الصفة عند الناس ، وما هذا بالرأى الصحيح ، فحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل ، وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لايؤمر به ولا ينهى عنه .

وربما كان سبب الكتمان حرص المحب على سمعة محبوبه ، وهذا من دلائل الوفاء وكرم الطبع .

وربما كان السبب خوف المحب على نفسه لجلالة قدر المحبوب ، فان أظهر سره بطش به المحبوب .

وربما كان سبب الكتمان الا ينفر المحبوب ، فلو باح المحب بعاطفته انقطعت الصلة بينهما .

وربما كان السبب الحياء الغالب على الانسان ، أو أن يرى المحب من محبوبه انحرافا وصدا ويكون ذا نفس أبية ، فيستتر لئلا يشمت به عدو .

والاذاعة عكس الكتمان ، وهى أمر منكر ولها أسباب : فمنها ان يريد صاحب الفعل أن يبدو بمظهر العاشقين ويدخل فى عدادهم ، وهذه دعوى فى الحب زائفة . ومن أسبابها غلبة الحب وتغلب الجهر على الحياء فلا يملك الانسان حينئذ نفسه ، وكم من مصون الستر كشف الحب ستره . ومن أسبابه أن يرى المحب من محبوبه غدرا أو مللا أو كراهية ، فلا يجد طريقا للانتقام منه الا بالتشهير به . وربما كانت اذاعة الحب تتفق ورغبة المحبوب . يقول ابن حزم : قرأت فى بعض أخبار الاعراب ان نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهر بذكرهن على أن يذكر عنهن العفاف ، ولا أدرى ما معنى هذا ، وأى عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى .

ومن عجب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه . ومن أمثلة هذه الطاعة ان تتغير طباع المحب بحيث تصبح كطباع محبوبه . فربما يكون المرء شرس الاخلاق صعب الشكيمة ، فما هو الا ان يتنسم نسيم الحب ، فتعود الشراسة ليانا والصعوبة سهلة . ومنها أيضا انه ربما يكون المحبوب متبرما بسماع الوجد ، فترى المحب حينئذ يكتم حزنه ، أو أن يكون الحبيب متجنيا ، فعندها يقع الاعتذار والاقرار بالجريمة والمرء منها برىء .

وعكس الطاعة المخالفة فربما اتبع المحب شهوته وركب رأسه ليرضى رغبته من محبوبه سواء سخط أو رضى .

آفات الحب :

وللحب آفات أولها العاذل . والعذال أقسام : أولهم صديق قد رفعت الكلفة بينك وبينه ، فعذله أفضل من كثير من المساعدات لا سيما اذا كان رقيقا فى قوله ، يعرف كيف يختار الوقت المناسب للنصيحة المناسبة . ثم عاذل زاجر لا يفيق أبدا من الملامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل . ثم يقول ابن حزم : ولقد رأيت من اشتد وجده حتى كان العذل أحب شىء اليه ، ليستلذ مخالفة العاذل ويريه عصيانه ، كالملك الهازم لعدوه ، والمجادل الماهر الغالب لخصمه .

وعكس العاذل المساعد من الاخوان . ويصفه ابن حزم فى فقرة كلها بلاغة ورقة ، ومما جاء فيها قوله : ومن الأسباب المتمناة فى الحب أن يهب الله عز وجل للانسان صديقا مخلصا

جم الموافقة ، جميل المخالفة ، مكتوم السر ، كثير البر ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصدق ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع .. ثم يتساءل قائلا : وأين هذا ؟ فان ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين ، فمعه يكمل الانس ، وتنجلي الاحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال .

ولقد كان بعض المحبين لعدمه هذه الصفة من الاخوان ، قد أقام الوحدة مقام الانس ، وكان ينفرد في المكان النازح عن الانيس ويناجي الهوى ، ويكلم الأرض ، ويجد في ذلك راحة كما يجد المريض في التأوه ، والمحزون في الزفير .

ومن آفات الحب الرقيب . والرقباء أقسام : فأولهم رقيب جلس غير متعمد في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على اظهار شيء من سرهما والبوح بوجدهما والانفراد بالحديث . ثم رقيب أحس من أمرهما بطرف ، وتوجس من مذهبهما شيئا ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فيدمن من الجلوس ، ويتخفى بالحركات ، ويرمق الوجوه ، وهذا أعدى من الجرب . ثم رقيب على المحبوب ، وهذا لاحيلة فيه الا بترضيته ، واذا أرضى فذلك غاية اللذة . وهذا الرقيب هو الذي ذكرته الشعراء في أشعارها . ويرى ابن حزم أنه شاهد من استرضى الرقيب حتى صار الرقيب عليه رقيبا له .

اما اذا لم يكن في الرقيب حيلة ، فلا طمع الا بالاشارة بالعين همسا ، وبالحاجب أحيانا ، والتعريض اللطيف بالقول . واشنع ما يكون هذا الرقيب اذا كان ممن امتحن بالعشق قديما فكان راغبا في صيانة من يراقبه . فتبارك الله أي بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته .

ومن طريف معاني الرقباء أن يشترك اثنان في حب محبوب واحد ، فيصبح كل منهما رقيبا على الآخر .

ومن آفات الحب الواشي . وللوشاة طرق في وشاياتهم : فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يحب أنه غير كاتم للاسرار ، وهذا أمر يوجب النفار . وربما ذكر الواشي أن ما يظهره المحب من المحبة ليس صحيحا ، وان غايته في ذلك اشباع رغبته . وربما نقل الواشي أن هوى العاشق ليس وقفا على المعشوق بل هو مشترك مع آخر غيره .

ومن آفات الحب الهجر . وهو على أنواع : أولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وأنه لاحلى من كل وصف . يقول ابن حزم : ولولا أن حكم التسمية يوجب ادخاله في هذا الباب لأجللته عن تسطيره ، فحينئذ ترى المحب منحرفا عن محبه ، مقبلا بالحديث على غيره ، وترى المحب أيضا كذلك ، ولكن طبعه له جاذب ، ونفسه له صارفة بالرغم ، فتراه حينئذ منحرفا كمقبل ، وساكنا كناطق .

ثم هجر يمتحن به المحبوب صبر محبه ، ولذلك لا يكون الا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه .

ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب ، وهذا فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة وسرور الرضا يعدل ماضى ، وهل هناك أجمل من منظر محبين يتعاتبان بعد هجر لذنب وقع من المحب ، فابتدأ المحب في الاعتذار والخضوع والتذلل والادلاء بمحبته الواضحة ، فطورا يدلى ببراءته وطورا يرد بالعفو ويستدعي المغفرة ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب في كل ذلك ناظر الى الارض يسارقه اللحظ الخفي ، وربما ادامه فيه ثم يبتسم مخفيا لتبسمه ، وذلك علامة الرضا : ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر ، وتذهب آثار السخط ، ويقع الجواب بنعم وذنبك مغفور .

والتجني بعض عوارض الهجران ، ويقع في أول الحب وآخره . اما في أوله فهو علامة لصحة المحبة وفي آخره علامة لفتورها . واذا كان قليلا فهو مصدر لذة ، اما اذا تفاقم فهو غير محمود .

ثم هجر يوجبه الوشاة وقد سبق ذكره .

ثم هجر الملل . ثم هجر يأتي من جانب المحب ، وذلك عندما يرى جفاء محبوبه فيرى الموت أهون من رؤية ما يكره .

وعكس الهجر الوصل . وان للوصل المختلس الذي يخاتل به أصحابه الرقباء ، ويتحفظ أهله من الحاضرين ، مثل الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الايدي ، والضغط بالأجناب ، والقرص باليد والرجل ، لموقعا من النفس شهيا .

ومن آفات الحب الغدر . ومن قبيح الغدر ان يكون للمحب سفير الى محبوبه يستريح اليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه الى نفسه ، ويستأثر به دونه .

وعكس الغدر الوفاء . وهو من أقوى الدلائل على طيب الأصل وشرف العنصر ، وأول مراتب الوفاء أن يفي الانسان لمن بقي له ، وهذا فرض لازم على المحب والمحبوب . ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر ، وهذا واجب على المحب دون المحبوب ، ولو أن من يقابل الغدر بمثله لا يستحق الملامة ، ولكن غاية الوفاء في هذه الحالة عدم مقابلة الاذى بمثله والرجاء في عودة الامور الى ماكانت عليه . فاذا وقع اليأس واستحكم الغيظ فليكن الحنين الى الماضي وعدم نسيان ماانقضى أثبت الدلائل على صحة الوفاء . ولا يقصر ابن حزم الوفاء على الحب فقط بل يقول ان هذه الصفة واجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم لاسيما الصداقة . أما ثالث مراتب الوفاء فهي الوفاء مع اليأس التام كما في حالة موت أحد العاشقين .

ومن آفات الحب البين أو البعد . وهو أنواع : فأولها أن يكون لمدة معينة ، ثم أن يكون منعا من اللقاء ، ثم بعد يتعمده المحب تجنبا لاقوال الوشاة ، وخوفا ان يكون بقاؤه سببا الى منع اللقاء ، ثم بعد تفرضه ظروف الحياة كأن يرحل شخص على ان يعود فتنقطع الطريق بسبب قيام حرب . ثم بعد رحيل وتباعد ديار ، ولا تكون العودة أمرا يقينيا ، وهو الخطب الموجع والهم المنقطع والحادث الاشنع . وان للاوبة من البعد الذي تشفق منه النفس لطول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه لروعة تبلغ ما لا حد وراءه وربما قتلت .

والوداع - أعني رحيل المحب أو رحيل المحبوب - من المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تفتضح فيها عزيمة كل ماضي العزائم .

والوداع ينقسم قسمين : احدهما لايتاح فيه الا النظر والاشارة والثانى يتاح فيه العناق ، وربما لم يكن ذلك ميسرا الا فى حالة الوداع ، ولهذا تمنى بعض الشعراء يوم البعد . وليس هذا بالراى الصواب ، فما يعدل سرور ساعة بحزن ساعات ، فكيف اذا كان البعد اياما وشهورا وربما اعواما .

ثم هناك البعد الذى يسببه الموت ، وهو لا يرجى له عودة ، وهو المصيبة الحالة ، وهو قاصمة الظهر ، وداهية الدهر ، فلا حيلة الا الصبر طوعا او كرها .

ولابد للمحب اذا حرم الوصل من القنوع بما يحب ، وان فى ذلك لمتعللا للنفس ، وتجديدا للمنى ، وبعض الراحة . وهو مراتب على قدر الاصابة والتمكن . فمنها الزيارة ، ومنها السلام والمخاطبة . ومن القنوع أن يسر الانسان ببعض ما يخص محبوبه كارتداد بصر يعقوب حين شم قميص يوسف عليهما السلام . ومن ذلك ان يتهادى العاشقان خصل الشعر لتكون تذكرة عند البين .

ومن القنوع الرضا بمزار الطيف . وحال الذى يزوره الطيف فى المنام ينقسم أربعة أقسام : احدهما محب مهجور قد طال غمه ، ثم راى فى منامه ان حبيبه قد عاد اليه فسر بذلك وابتهج ثم استيقظ فاسف وتلهف . والثانى محب مشفق من تغير يقع ، فقلق لذلك قلقا شديدا ، ثم هب من نومه فعلم ان ذلك باطل وبعض وساوس القلق . والثالث محب وافى الديار يحلم ان التنائى قد فدحه . فيضطرب ، ثم يصحو فيذهب ما به ويعود فرحا . والرابع محب بعيد المزار ، يرى ان المزار قد دنا فيرتاح ، ثم يقوم من نومه فيرى ان ذلك غير صحيح فيعود الى اشد ماكان فيه من الغم .

ومن القنوع ان يقنع المحب بالنظر الى الجدران التى تحتوى على من يحب ، ومنه أن يرتاح المحب الى أن يرى من راى محبوبه ويانس الى من اتى من بلاده .

وقد بالغ الشعراء فى بيان القنوع ، فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تحملهما ، ومنهم من قنع باستوائهما فى احاطة الليل والنهار بهما واشباه هذا . ويقول ابن حزم ان له قولا لا يمكن لشاعر بعده ان يذهب ابعد منه ، وهو قوله :

وعلم اله الخلق يجمعنا معا
كفى ذا التدانى ما اريد مزيدا

ويشرح ابن حزم ذلك بقوله : فبينت كما ترى انى قانع بالاجتماع مع من أحب فى علم الله الذى لا تنفصل منه السموات والأفلاك والعوالم كلها وجميع الموجودات !

ومن القنوع فصل يستعاذ بالله منه ومن أهله ، وهو أن يرضى الانسان بأن يشاركه آخر فيمن يحب ، وهذا لا يصح الا مع سقوط من العقل وضعف حسى .

ولابد لكل محب صادق المودة لا يستطيع الاتصال بحبيبه ، اما بسبب البعد أو الهجر أو الكتمان لسبب ما ، من ان يؤول الى حد السقام والضنى والتحول . ويقول ابن حزم ان هناك فرقا بين أعراض الأمراض الواقعة بسبب المحبة وأعراض الأمراض الواقعة من هجمات العلل الأخرى . وان الطبيب الحاذق يستطيع ان يميزها ، ولما كان المرض نفسيا أكثر مما هو جسمى ، فان ابن حزم يتنبه الى أن الضنى قد يتسبب فى جنون صاحبه .

وعاقبة كل حب أحد أمرين اما الموت واما السلو . والسلو قد يكون من المحب وقد يكون من المحبوب وقد يكون من الله تعالى وهذا الأخير هو اليأس وفروعه ثلاثة : اما موت ، واما بعد لا يرجى بعده عودة ، واما بسبب آفة تزمن .

وربما تزايد الامر ورقة الطبع وعظم الاشفاق فكان سببا للموت ومفارقة الدنيا . وقد جاء فى الآثار : من عشق فعف فمات فهو شهيد .

وقد ركب الله فى الانسان طبيعتين متضادتين : احداهما لا تشير الا بخير ولا تحض الا على حسن ، وهى العقل وقائده العدل . والثانية ضد لها لا تشير الا الى الشهوات ولا تقود الا الى الردى ، وهى النفس وقائدها الشهوة . فهاتان الطبيعتان قطبان فى الانسان يتقابلان ابدا . فاذا غلب العقل النفس اتبع العدل ، واذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة . ويسوى ابن حزم هنا بين الرجل والمرأة فى المسئولية عند ارتكاب المعصية ، فالرجال والنساء فى الجنوح الى هذه الأشياء سواء.

ويختتم ابن حزم رسالته بالحديث عن فضل التعفف ، وترك ركوب المعصية والفاحشة ، فهذا افضل ما يأتيه الانسان .